الاخلاق

خطاب الدكتور فريد افندي عبدالله في جمعية الشبان المسيحيين في مصر

الاخلاق اهم العوامل والقوى المحركة في العالم فهي التي تمثل في مجموعها الطبيعة الانسانية في احسن تقويم بل هي السبيل الوحيد الذي يرفع الانسانية الى ذرى التقدم والكمال

لا عجب اذا رأينا ذوي المواهب العجيبة والاخلاق الراضية سبباً مهماً في تقدم الامم الذين عاشوا بينهم فهم الذين يقودون خطوات الجنس البشري الى طريق الكمال ولا غرابة في ان يتقدم الناس ويقتفوا خطواتهم

وكما ان شدة النباهة والذكاء توجب الاعجاب والاندهاش فكذلك الاخلاق النبوية توجب الاحترام فالاولى نتيجة قوة وعمل الدماغ والثانية نتيجة قوة وعمل القلب وفرق بين هذا وذاك فان القلب هو المتسلط على الحياة كما لا يخفى فرجال الفطنة والذكاء يقيدون الهيئة الاجتماعية بعلومهم واختراعاتهم ورجال الادب والاخلاق يقيدونها بحرية ضمائرهم وبنا يعجب الناس بالاولين فهم يتبعون خطوات الآخرين

عظماء الرجال اصحاب المواهب النادرة نادر وجودهم اذ قل من تساعده الظروف والفرص ليظهر عظيماً ولكن كل انسان في الوجود يمكنه ان يتمم عمله بشرف وامانة . يمكنه ان يستعمل مواهبه الخصوصية ويعمل بكل قوته . يمكنه أن يجعل حياته شريفة وثمينة ومطلوبة . يمكنه ان يكون اميناً في اصغر الاعمال واحقر الامور وبالاجمال يمكنه ان يتمم واجباته في اي مركز وضعته العناية فيه وبذلك يكون عظيماً . لم يخلق الانسان ليعيش لنفسه فقط بل لينفع الاخرين فكلامنا عليه واجب يؤديه سواء في ذلك الغني او الفقير التلميذ او المعلم الرئيس أو المرؤوس وما حياة الانسان الا مركز دائرة الواجبات العامة . قال سقراط ان كل انسان هو مركز لجملة دوائر مختلفة متداخلة في بعضها ببعض الدائرة الاولى من الشخص نفسه ثم الى والديه وزوجته واولاده والدائرة الثانية ذوي قرباه وبعد ذلك دائرة اهل الوطن واخيراً الجنس البشري كله فترى من ذلك ان دائرة الواجب لا حد لها وهي موجودة في كل دور من ادوار الحياة وليس خاصة بالاغنياء فقط بل والفقراء ايضاً ومحتم على الانسان ان يقوم بتأدية الواجب المفروض عليه في جميع الاحوال والظروف في اي زمان أو في اي مكان . فالاهتمام بتأدية الواجب هو النقطة الاساسية للاعمال العظيمة المفيدة الموصلة لارقى حياة

مدنية ويجب أن يكون الواجب هو النجمة القطبية الواجب تحويل النظر اليها والاشتغال بها والامل فيها والموت من اجلها

وها كم مثلاً عن كيفية تأدية الواجب . جاء في التاريخ انه منذ الف وثمان مئة عام حصل هيجان في بركان نيزوف في بومبي وكان احد العساكر معيناً عليه الحراسة في نقطة مخصوصة مأموراً ان يلازمها ولا يتحول عنها فلما هاج البركان هرب كل السكان واما هو فبقي في مكانه لم ينتقل منه . كان حارساً بكل معنى الكلمة اختنق من الروائح الكبريتية المتصاعد من الحمم المتساقطة . غطي جسمه بالاتربة بل صار جسمه رماداً واما ذاكرته فكانت موجودة تحثه على وجوب تأدية الواجب ولا يزال درعه وخوذته وآلاته الحربية موجودة حتى الان في متحف بربونيكو تذكر كل من يراها بامانة هذا الجندي الشجاع وكيف هلك في سبيل تأدية الواجب

وأحسن شكل من اشكال تأدية الواجب هو ما يعمله الانسان للآخرين كما يعمل لنفسه بكل وداعة وانضاع . قال القديس أغسطينوس اتريد ان تكون عظيماً فابدأ اولاً بأن تكون صغيراً . هل تفسك الانضاع فهو اساس العظمة الحقيقية فاذا اردت ان يكون بناؤك عالياً ومتيناً يجب حتماً ان يكون الاساس اكثر عمقاً وغوراً . وحقيقة فان الانضاع هو تاج الجمال واساس الفضيلة

فاحسن الواجب ما عمل بالانضاع وسراً بعيداً عن الانظار فهناك في تلك الزاوية المختفية التي لا يراها احد تعمل الفضيلة عملها بشرف وفخار . ان الفضيلة الحقيقية لا تعلن عن نفسها وتزيد قيمتها بمقدار نفعها . واما اهمال الواجب او التقصير فيه فهو دين على الانسان تطالبه الانسانية به اما في الحال او الاستقبال

وهاك قصة تاريخية اخرى تبين لنا كيفية تأدية الواجب . يقال انه من قرن او يزيد حصل كسوف في الشمس عظيم في امريكا اظلم الجو وحصل رعب شديد كأنه قد اتت الساعة وكان ذلك اثناء انعقاد جلسة من جلسات المحكمة فاوقفت الجلسة عند اشتداد الظلمة وحصل هرج ومرج شديدان وذلك لانتشار الخزعبلات والخرافات في الوقت فقام احد القضاة المحلفين واسمه واينورت وقال انه يجب الاستمرار على العمل ولو انطبقت السماء على الارض وكان هذا اليوم آخر ايام العالم فيجب على الانسان ان يلاقي ربه وهو قائم باداء الواجب وامر باحضار الشموع واضاءة المكان والاستمرار على العمل وكان له ما اراد

ويحكى ايضاً عن ناقص ضعيف البنية ضئيل الجسم كان مخصصاً جزءاً كبيراً من وقته للاعمال الخيرية كعيادة المرضى وزيارة البائسين ومواساتهم فكان يجلس في يومهم الفضية ويحوار امرتهم الواسعة ومعالجتهم ويساعدهم بكل ما في استطاعته وكثيراً ما انتقد اصدقاؤه على سرفه وقلة عنايته بشؤن هذه الاعمال وهددوه بالعدوى من زيارة المرضى والمحتاجين ولكنه كان يجيب بكل هزء وبساطة مع بساطة متناهية نعم يجب ان اهتم بشغلي وعائلتي ولكنهم من الجهة الاخرى مطالب بتأدية الواجب الذي تفرضه عليّ الانسانية صفتي انسان فليس الذي يهب امواله ويتصدق على الفقراء هو بافضل الخيرين فقط بل هو الذي يهب حياته ويفرق بين من يهب ماله ومن يهب حياته فالاول ربما يأسى ويزول ذكره واما الثاني فذكره يدوم الى الابد ومما يزيد عمه لا يموت

فادية الواجب ايها السادة من اهم الاخلاق التي يجب ان يتحلى بها الانسان . قال الدكتور اوسلر عند ما رأى صديقه توماس ما كفيل انه لا يعجب به بالنسبة لمواهبه أو ثروته او شهرته المقال بل هو يعجب باخلاقه الشريفة يعجب من معرفته الواجب نحو الخالق به المرتبطين معه في اشغاله اليومية وقال من كان ملهماً لامرأته او اكثر شفقة نحو اولاده أو اسرع منه في تلبية نداء اصحابه ومساعدتهم أو اين منه عريكة في معاملة خدامه او اصدق منه في اقواله . وحقيقة ان اخلاق المرء تكون اكثر ظهوراً في معاملته الخصوصية نحو اقرب الناس اليه والذين يتعاطى معهم اعماله اليومية اكثر مما تظهر منه بصفته موظفاً او خطيباً او سياسياً

ومتى تمم الانسان الواجب المفروض عليه تمم الغاية التي خلق لاجلها فهو اساس الاخلاق والرجولة الحقيقية زد على ذلك ان معرفة الواجب تساعد الانسان مهما كانت درجته في الهيئة الاجتماعية على تحمل الاتعاب والمثابرة على العمل . كثيرون لا يملكون شيئاً سوى اخلاقهم ومع ذلك يكون احدهم مهيم كانه ملك متوج ولا تظنوا ان العلم وحده يحسن الاخلاق فكثيراً ما نرى انعدام العلم والفلسفة عند احط الناس أخلاقاً والفضيلة وشرف النفس والصدق ومعرفة القيام بالواجب عند احقر فلاح

كتب المستر بولس مرة لاحد اصدقائه انك تهتم كثيراً بمباحث الكتاب وتغتنم العلماء واما اوافقك على ذلك ولكن في الوقت نفسه لا تنس ان عظمة العقل وسمو الفكر واختيار احوال العالم ؛ وحسن السيرة والسريرة وصحة الصدق والامانة كل هذه ربما كا

تنقص أرقى العلماء والمتعلمين

وقال جورج هربرت ان قبضة من حياة صالحة خير من اردب تعليم . وذكر بعضهم على مسمع من السير والتر سكوت الكاتب العالم المشهور الاعمال العظيمة التي يأتيها العلماء والكتاب والفوائد الاجتماعية التي يجنيها العالم من اقوالهم وافكارهم واخذ يطنب فيهم حتى رفعهم الى الجوزاء وجعلهم في مصاف الالهة فقال السير سكوت ساعدنا الله كي يكون العالم في غاية المهانة والفقر لو كانت هذه الاراء صحيحة . ثم قال طالعت الكثير من الكتب وحادثت الكثيرين من العلماء ومن حازوا درجة عالية من الشهرة بما فيه الكفاية ولكني اؤكد اني سمعت من افواه العامة الغير المتعلمين ما يذري باقوال العلماء وما يدل على شعور ارقى مما هو موجود عند اولئك الفلاسفة الادباء . سمعتهم ولم يتحدثون عن مصانعهم ومصائبهم بافكارهم البسيطة وكيف يقابلونها ويتخلصون منها بثبات وحزم عجيبين

فتحسين الاخلاق اهم من جمع الثروة . فان الثروة متى كانت في يد فاسدي الاخلاق ضعيفي الارادة مهما كانوا متعلمين هي فقط مصدر تجارب لهم وتكون سبباً في تلف انفسهم واضرار غيرهم وبالعكس الفقر مع حسن الخلق فقد يكون الرجل فقيراً لا يملك شيئاً من دنياه سوى حرفته واقتصاده وصحته واستقامته ومع ذلك يكون في الدرجة الاولى من الرجولية

يحكى عن رب عائلة كان لا يزيد ايراده الشهري عن جنيهين فقط في الشهر ولكنه كان في حالة يغبطه عليها الكثيرون . كان رجلاً مفكراً متعلماً حكيماً ربى أولاده تربية حسنة ولو انها بسيطة كان سعيداً في معيشته وكانت مكتبخانته مؤلفة فقط من الكتاب المقدس وكتاب فلافل و وسطون وهي كتب ربما لا يعلم الناس عنها شيئاً ومع ذلك فمثل هذا الرجل يحق له ان توضع صورته بجوار اعاظم الرجال فقد قضى حياته بين المعمل والمعبد وانتهى اخيراً للراحة الابدية ولكنه خلف الذكر الحسن والاجتهاد وقوة الاعتماد على النفس والقيام بالواجب وهي أمور يغبطه عليها الكثيرون من هم اعظم واغنى منه

ومات لويس فقيراً معدماً لم يترك ثروة ولا مالاً فقد كان فقيراً جداً وامضى جزءاً كبيراً من حياته في تفليح الارض وخدمة البساتين وتصليح السلعات ولكنه بينما كان يعمل بيده ليعيش كان من الجهة الاخرى يعمل لتغيير اخلاق اهل وطنه . كان اعظم واقوى ادبياً من اعظم عظيم من امراء جرمانيا بل كان اقوى منهم جميعاً وهكذا صار له نفوذ عظيم واكرام وتأثير ومكانة واتباع كثيرون . فالاخلاق الحسنة هي ثروة

بل هي اشرف واحسن ثروة يقتنيها الانسان . نعم قد لا يكون الحائز لها غنياً ماديّاً ولكنه اديباً ويعدون من ارفع طبقات العالم وهذا اعظم ربح واحسن مكانة لهم

قال السير ديلفين وديارد ليس المطلوب من الانسان ان يكون عبقرياً او عالماً بل ان يكون حسن الخلق شريف الغاية ويجب ان تكون تجاربه الجيدة مؤسسة على مبادئ صحيحة غير مغايرة للحق والاستقامة والصلاح فان المبادئ الادبية كما قال هيوم هي التي توجد قسماً من الحس البشري اشد الفضائل ومقاومة الرذائل

لا يمكن الاعتماد على قوة العقل والادراك لترقية الهيئة الاجتماعية الا اذا اسسنا على دعائم قويمة مثل الصدق والامانة وشرف النفس وعظم الهمة وعلى هذه الاخلاق لا غير يتوقف احترام الناس واكرامهم وخصوصاً الصدق فهو سيد الاخلاق . فهو تذكرة المرور أو بسابورت الخلق والاحترام العام

ليس العلم او العقل هو الذي يظهر في اعمال الانسان اليومية بل الاخلاق والصلاح . هو القلب الذي يظهر وليس العقل . ليس اظهر من الاحساسات الشريفة ولا افضل منها في امورنا الخاصة والعامة

قيل عن الشريف شريدان انه كان على درجة سامية جداً من العلم والفطنة والذكاء وانما كان ينقصه قوة الاعتماد على النفس . كان ضعيف الارادة منهمكاً في اللذات ولما مات بدون ان يظهر له فضل أو يكون له تأثير في حياته العمومية أو الخصوصية حتى ان دليني المضحك الذي كان حاذقاً عنده شعر في نفسه بانه افضل منه مع فقره . يحكى عن دليني هذا وبخ مرة صراف اخر بنة لتأخره عن صرف مرتبه وضايقه كثيراً وكان ذلك بحضور شريدان فالتفت شريدان محدقاً وقال له انك تجاوزت الادب ونسيت مركزك فاجابه دليني لا يا موسيو شريدان انا لم انس مركزي واعلم جيداً الفرق بيننا فانت من عائلة شريفة وأحسن وافضل مني في كل شيء واما في الحياة والاخلاق فلا اني افضل منك مع فقري

فالتربية والتهذيب لها تأثير شديد في مستقبل الحياة فبحسب نوع التربية اما ان يتحط الانسان الى اسفل الدركات او انه يسمو الى ارقى الدرجات وكما ان كل شيء في الوجود له ظل مهما كان صغيراً فكذلك الاخلاق والتربية سواء كانت رديئة او فاضلة لا بد لها من نتيجة حسنة او سيئة

قال بعض الحكماء لا يجب ان يكون الانسان مخلوق الظروف . بالعكس يجب ان يكون هو موجد الظروف والتربية والاخلاق هي التي تبني الظروف وتوجدها فمثلاً من مواد البناء الواحدة وهي الطوب والطين يبني الانسان السرايات الفخيمة والدور الجالسة والاكواخ الحقيرة فالمادة واحدة وهي ضوب وطين لم تتغير ولكن في قدرة المهندس او البناء ان يحولها الى شيء وشكل آخر وهكذا الحال في العائلات تجد احد الافراد يتقدم ويتموسق الفضيلة مهما قابله من الصعوبات والآخر مذبذب الفكر كثير السقوط عند اقل مقاومة او صعوبة فكلتا الصخرة التي تصادف ضعيف الارادة فتعيقه عن التقدم تكون هي ذاتها الحجر الاساسي او النقطة الارتكاز التي يرتكز عليها قوي الارادة لترقي والصعود . فالانسان بيده من حرية الارادة يمكنه ان يسدد خطواته نحو الطريق التي تجره لخير لا للشر . قال القديس برنارد انه لا شيء يسوؤني في العالم لا نفسي واذا كنت اتالم حقيقة فانما اتالم من غلطاتي وخطاياي للخطاب بقية

الصحافيات في باريس

كل مطالع على تاريخ اليونان يذكر حالة غريبة اجتازتها المرأة وهي ان من النساء من تخاصن من حالتهن ومركزهن الطبيعي وهو الامومة وصرن حرات في عيشتهن وكن يدعين «المتيرات» ذلك لان المرأة اشتغلت بما للرجل وداست الزيجة

وكأن المدنية الحديثة صائرة الى اوراء فلم يكف قرننا ان رجالها امتنعوا عن الزواج حتى قام نساؤها واردن ان يمثلن حالة اليونان تماماً وحصرن جهدهن في الاشتغال بالعلم والشؤون الاجتماعية العمومية وهذا هو ما حصل عند اليونان قديماً

تنقسم المشتغلات في باريس بالشؤون العمومية الى قسمين : قسم يريد التسلية وحب الظهور فقط . وقسم لتحصيل المعاش وتكاد اشغالهن تنحصر في